تحقيق في مقتل الشهيد الثاني

الشيخ رضا المختاري[1]

قال العالم المتتبع الفاضل السيد حسن الأمين رحمه الله:

أجمع الذي تعرضوا لترجمة الشهيد الأول، محمد بن مكي، على ذكر قصة اليالوشي وذكرها أكثرهم من دون أن يشير إلى أن له علاقة باستشهاد الشهيد، بل ذكرت مرسلة ككل حادث من أحداث حياة الشهيد الثاني.

ونحن نأخذ هنا النص الذي وردت به في موسوعة أعيان الشيعة:

«مما عرف عن الشهيد رحمه الله، أن رجلاً مشعوذاً ظهر في جبل عامل وادعى النبوة واسمه محمد اليالوشي من قرية تسمى برج يالوش، فحاربه الشهيد وقضى عليه في سلطنة برقوق، ويقال: إنه كان من تلامذة الشهيد فوقع بيد الشهيد كتاب شعوذة فسلمه إليه لينقله، فأخذه وغاب ثم رجع وأخبره بإتلافه كاذباً وأخفاه عنده وتعلم منه الشعوذة وعمل به حتى ادّعى النبوة».

ورد ذلك في أعيان الشيعة من دون تعليق وتفصيل، وكل ما أراده صاحب أعيان الشيعة هو أن يكون أميناً في الحديث عن حياة الشهيد فينقل كل ماورد عنها.

وهذه القصة، كما ترى، غامضة كل الغموض لا يمكن أن نستنتج منها. كما وردت. أية حقيقة، فربما لها أصل ثم زاد فيه المزيدون.

هل الرجل مشعوذ أم مدعي نبوة؟ وما هو كتاب الشعوذة الذي اقتبس منه شعوذته؟ وما هو الخطر كان يخشاه الشهيد على الناس من هذه الشعوذة؟ ثم القول: إن الشهيد حاربه، ولم يكن القول: إنه قاومه أو قاوم دعوته... فكلمة حاربه تعني أن جَمْعَين التقيا بالسلاح في قتال، وهل هانت عقائد العامليين إلى حد يستطيع مدع النبوة أن يجمع منهم جموعاً تحمل السلاح وتقاتل بين يديه مؤمنة بنبوته المُدعاة؟

وهل الشعوذة تستطيع أن تقنع أناساً مؤمنين بدينهم بأن يتركوا هذا الدين، وينضموا إلى صاحبها، وأن يحملوا السلاح ويستهينوا بالموت حمية لها؟

ثم ما هو موقع الشهيد التنفيذي في تلك الآونة، وما هي قدرته على حشد الحشد المسلح وقيادته للقتال، وأين هي السلطة القائمة من ذلك كله؟

---

(١) أحد كبار الباحثين والمحققين واساتذة الحوزة العلمية في قم المقدسة وهذه مقتطفات من كتابه (الشهيد الأول: حياته وآثاره) قم ١٤٢٦هـ ص١٠٧-١١٠) (ص١١٧-١٢٦).

جميع هذه الأسئلة وكثير مثلها، تحتاج إلى أجوبة، ولكن لا مجيب لأنه لامصادر ولا تفاصيل يرجع إليها من يحاول الإجابة.

لذلك ستظل قصة اليالوشي قصة يمتزج فيها الخيال بالحقيقة، وحين يتسع الخيال فيها تضيع معه الحقيقة! على أنه لا بد لنا من التساؤل: هل لقصة اليالوشي ارتباط بقضايا التمرد على برقوق؟ ثم غلب على هذا الارتباط موقعها المحلي، فعادت محلية بحتة؟

نستطيع أن نجزم بأن لا علاقة لها بالأحداث التمردية التي أشرنا إليها من قبل، وأنها أمر عاملي بحت، غابت عنا حقائقه، وضاعت في طيات الزمن تفاصيله..

هذا النص الذي حفظه صاحب اللؤلؤة، مأخوذاً عن المقداد السيوري، يرينا حقيقة مأساوية عاشها جبل عامل، فهؤلاء العامليون الذين استطاعوا التغلب على الضغط الصليبي فحفظوا كيانهم واستمسكوا بعقائدهم، واجهوا بعد الجلاء الصليبي ضغطاً من نوع آخر مارسه عليهم المماليك، فكان عليهم أن يعودوا من جديد للصبر على الشدائد ومقاومة الاضطهاد بقواهم المعنوية، لتظل عقائدهم التي ارتضوها لأنفسهم سليمة.

يصف المقداد، في مادوّنه، الواشي الأول بمحمد بن مكي بأن وشايته جاءت بعد ظهور أمارة الارتداد منه. ثم يصف الواشي الآخر بأنه ارتد عن مذهب الإمامية. ثم يصف الذين كتبوا محضر التشنيع على محمد بن مكي بأنهم كانوا ممن يقول بالإمامة والتشيع ثم ارتدوا عن ذلك، ويقول إن عددهم كان سبعين...

ولنا أن نقول: إن حركة الارتداد هذه لم تكن بنت ساعتها، وإن ارتداد هؤلاء المرتدين كان نتيجة محاولات طويلة امتدت حوالي سبعين سنة، أي منذ جلاء الصليبيين وحلول المماليك محلهم. فالذي يبدو جلياً هنا أن عملية اضطهاد واسعة للعامليين قام بها المماليك لتحويل أبناء جبل عامل عن عقيدتهم استعملت فيها مختلف أساليب الوعد والوعيد والترهيب والترغيب. وإن ثمرة هذه العملية التي طال أمدها سبعين سنة كان ارتداد سبعين عاملياً عن مذهبهم، فاستُغلّوا للشهادة علي محمد بن مكي.

ولو أن الذين أرادوا هلاك محمد بن مكي وجدوا في جبل عامل أكثر من هذا العدد من الشهود لسجلوا أسماءهم مع السبعين. ولكنهم لم يجدوا فلجأوا إلى الساحليين الذين لم يكونوا على مذهب الجبليين فسهل عليهم أن يشهد من هؤلاء على محمد بن مكي ألف شاهد.

إذن فالوعد والوعيد والترهيب والترغيب، والاضطهاد بجميع أنواع الاضطهاد، ووسائل الترويع التي لجأ إليها المماليك طوال سبعين سنة لم تنجح إلا بتحويل سبعين رجلاً!

ويبدو جلياً أن محمد بن مكي، منذ عودته من العراق، قد وقف بصلابة أمام اضطهاد المماليك للعامليين وأمام ما يبذلونه من جهد في تحويلهم من حال إلى حال. وأنه عانى منهم ما عانى...

وهكذا نرى أن معركة محمد بن مكي كانت متعددة الجبهات، وأنه كان يقاتل من أجل تحقيق عدة أمور: كان يقاتل لنشر العلم في قومه العامليين. ويقاتل لحفظ عقائدهم. ويقاتل

جور الحكام الظالمين وأتباعهم. ويحارب «ممخرقات» فريق من التصوفة وشعوذاتهم وروحهم الانهزامية.

وبذلك كثر أعداؤه والساعون لهلاكه والقضاء عليه، وقد ورد في ما نقل عما ذكر المقداد السيوري «أن ممن تعصب عليه وساعد في إحراقه يقال له: محمد ابن الترمذي مع أنه ليس من أهل العلم وإنما كان تاجراً فاجراً».

فمن هو ابن الترمذي هذا؟ وما شأنه في التعصب على العالم العامل وهو مجرد تاجر لا شأن له في العلم؟! ولماذا بلغ به التعصب على أن يساعد في إحراقه؟! ثم ما هو نوع هذه المساعدة؟ هل سعى مع الساعين في أن لايكتفي بقتله، بل أن يحرق جثمانه بعد القتل زيادة التشفي؟ أم أن مساعدته كانت بالاشتراك في إحراق الجثمان الطاهر؟!

وقال المرحوم السيد حسن الأمين رحمه الله:

هذه هي التهمة التي وجهت إلى العالم العظيم محمد بن مكي، هذا العالم الذي رفض إغراءات الملوك بالالتحاق ببلاطاتهم، وآثر العيش في القرية مع الفلاحين والفقراء لينهض بمجتمعهم الذي أقعد الاحتلال الصليبي طوال عشرات السنين، هذا العالم الذي هاجر في صباه وشبابه إلى البلاد العربية طلباً للعلم، ليعود فيزوّد به شعبه فينقذه من الأميّة والجهل.

هذا العالم الذي كان أساتذته علماء من مكة والمدينة وبغداد والقدس ودمشق والحلّة، رحل إليهم ودرس عليهم فأجازوه وروى عنهم.

هذا العالم يوجه إليه أولئك الطغاة هذه التهم ليستحلوا دمه! [1]

نعم، لم يكن ذنب الشهيد سوى الترويج والدعوة لعقيدة الشيعة الحقة والسعي لنشرها، وما آثار الشهيد ومصنفاته. خاصة رسالة العقيدة الكافية الآتية في ضمن البحث عن مؤلفات الشهيد وآثار العلمية. إلا خير دليل على براء ساحته المقدسه من الاتهامات التي ساقها له المخالفون.

وقد أنشد الشهيد أثناء حبسه في قلعة دمشق أشعاراً يخاطب فيما بيدمر حاكم دمشق يُبرّئ ساحته من الاتهامات التي نسبت إليه، ومن جملة هذه الأبيات:

يا أيّها الملكُ المنصورُ بيدمرُ ... بكم خوارزم والأقطار تفتخرُ

إنّي لداعٍ لكم في كل آونةٍ ... وماجَنَيْتُ لعمْري كيف أعتذرُ؟

لاتَسْمَعَنْ في أقوال الوشاة فقد ... باؤوا بزُورٍ وإفْكٍ ليس يَنْحَصِرُ

واللهِ واللهِ أيماناً مؤكّدةً ... إنّي بريءٌ من الإفك الذي ذكروا

الفقهُ والنحوُ والتفسير يعرفني ... ثمّ الأصولانِ والقرآن والأثرُ

خدمة الملوك المظلوم والله: محمد بن مكي الشامي

---

(١) الشهيد الأول ص١٠٤-١٠٥.

قال العلامة السيد محسن الأمين رحمه الله:

ويعلم من هذه القصيدة عدة أمور تاريخية وهي: أنه كان قد وشي بالشهيد قدس يره إلى الأمير منجك قبل هذا فلم يقبل الوشاية، وأن الأمير حاجب وأستاذ الدار كانا يعلمان ذلك، وأنه كان يحج في كل سنة، وأنه كان في السنة التي استشهد فيها قد حج، وكان أمير الحج محمد بن بيدمر، وأنه كان له خلطة مع أرباب السلطنة وأركان الدولة[١].

وقال بعض المعاصرين في رد هذه الاتهامات:

أمّا لجهة السَبّ فإني أميل إلى تبرئة الرجل منه. لقد حقّقَ الشهيد خلال سنين عديدة صلات طيبة بالمراكز العلمية السُنية في المنطقة، وقرأ على كثير من شيوخها، وظل حتى أواخر عمره يُقيم مدداً غير قصير في دمشق، حيث كسب لنفسه مركزاً علمياً ممتازاً وتقديراً. ونسجل هنا شهادة الجزري التي يقول فيها: «صحبني مدة مديدة فلم أسمع منه ما يخالف السنة»[٢]. وهذا يدلنا على دقة الرجل، حتى لقد كان يحرص وهو يخط اللمعة الدمشقية أن لا يطلع عليه أحد. رجل كهذا في دقته ومرونته وسعة أفقه لا يمكن أن يلجأ إلى النيل والسب، وعلى كل حال فلماذا يفعل؟! في تقديرنا إن هذا السبب ليس أكثر من ترديد لتهمة تاريخية ضد الشيعة كانت دائماً أرخص وأيسر وسيلة للاستثارة عليهم[٣].

نعم كان الشهيد يراعي التقية، ودعا في آخر إجازته لابن الخازن. التي كتبها في دمشق قبل شهادته بسنتين تقريباً أي ثاني عشر شهر رمضان عام٧٨٤. للصحابة، حيث قال: والحمد لله أبد الآبدين، وصلى الله على أفضل الخلائق أجمعين... وعترته الطيبين الطاهرين وصحبه الأخيار المنتجبين[٤].

وقال صاحب الرياض:

نقل عنه رحمه الله أنه كان في الأيام يشتغل بتدريس كتب المخالفين ويقرئهم ولم تحصل له فرصة لتدريس كتب الشيعة لشدة التقيّة إلا في الليل بقدر ما بين المغرب والعشاء، فكان يدرس في ذلك الوقت الشيعة حين الخلوة في بيتٍ معيّنٍ عمله تحت الأرض[٥].

وكان بينه وبين علماء السنة مخالطة كما يبدو مما مر وصرح به الشهيد الثاني[٦]. وقال بعض المعاصرين:

---

(١) أعيان الشيعة ج١٠، ص٦١.

(٢) غاية النهاية ج٢و ص٢٦٥.

(٣) الهجرة العاملية إلى إيران ص٨٣.

(٤) بحار الأنوار، ج١٠٧، ص١٩٢.

(٥) تعليقة أمل الأمل، ص٨٠.

(٦) الروضة البهية، ج١، ص٢٤.

ومن حرص الشهيد على توحيد الكلمة.. كان يُخفي ما كان بيده من كتابه حين كان يزوره أعلام السنة في مجلسه، حتى أنه عُدّ من كراماته أنه حينما ابتدأ بكتابه اللمعة الدمشقية لم يمر عليه من زائر علماء السنة ووجهاء دمشق إلى أن تمت كتابة هذه الرسالة في سبعة أيام[١].

وهذه الرواية تدل على حرص الشهيد أولاً على عدم إثارة المسائل الخلافية، والمحافظة على وحدة الكلمة بين المسلمين في ظروف اجتماعية مضطربة... وتدل ثانياً على أن بيت الشهيد كان آهلاً بمختلف الطبقات من علماء ووجهاء وشيعة وسنة من دمشق وخارجها.

ولم يبق الشهيد... في دمشق عاطلاً عن العمل والنشاط، ولم ينتقل من جزّين إلى دمشق لغير سبب... فقد حاول أولاً أن يكوّنَ لنفسه مكانةً مرموقة في الأوساط الاجتماعية والفكرية، وهو عمل جبارٌ إذا لاحظنا الظروف التي عاشها الشهيد والفجوات الكبيرة التي كانت بين السنة والشيعة في ذلك الوقت.. وقد كان الخلاف في وقته قائماً على قدم وساقٍ بين السنة والشيعة، ومن ورائها كانت الصليبية تُغذّيها وتُلْهِمُها بمختلف الوسائل، وكانت الحكومات تجد في ذلك كله إلهاءً لذهنية المسلمين وتخديراً لنفوسهم[٢].

وعليه فإن الاتهامات التي ساقها له علماء العامة جاءت صرفاً لتبرير عملية قتله الفجيعة رحمه الله، والذي يبدو أن خطوات الشهيد السياسية ونشاطاته هي التي أدت إلى قتله من قبل الحكام كما قال بعض المعاصرين:

مسألة أخيرة تتصل بقتل محمد بن مكي ربما كانت هي السبب الأول والأخير في قتله، وهي صلته بحليفٍ شيعي علوي لتيمور هو السلطان علي بن مؤيّد ملك خراسان.. الذي كانت بينه وبين الشهيد «مودة ومكاتبة على البعد إلى العراق ثم إلى الشام»[٣].... ومما يكمل هذا الاتجاه أن السلطان المذكور أرسل رسولاً إلى الشهيد.. يستقدمه إليه.. ولكن الشهيد آثر أن يبقى حيث هو، وأرسل إليه رسالة اللمعة بقصد تفقيهه في المذهب الإمامي ومساعدته في تنظيم دولته على أساس منه.. وبهذا يبدو وأن قتل الشهيد الأول كان أدخل في السياسة منه في العقيدة[٤]... ومما يدل على نشاطات الشيعة في عصر الشهيد نص التوقيع المُسْهِب الذي أورده القلقشندي في صبح الأعشى. وفيه الكثير من الافتراءات على الشيعة. نورد لكم خلاصته:

قال القلقشندي:

وهذه نسخة توقيع كريم. بمنع أهل صيدا وبيروت وأعمالهما من اعتقاد الرافضة والشيعة وردعهم، والرجوع إلى السنة والجماعة، واعتقاد مذهب أهل الحق، ومنع أكابرهم من العقود الفاسدة والأنكحة الباطلة، والتعرض إلى أحدٍ من الصحابة (رضوان الله عليهم أجمعين) وأن لا

(١) الروضة البهية، ج١، ص٢٤.

(٢) الروضة البهية، ج١، ص١٣٠-١٣١، المقدمة.

(٣) كما قال الشهيد الثاني في الروضة البهية، ج١، ص٢٤.

(٤) الصلة بين التصوف والتشيع، ج٢ ص١٣٩-١٤٠.

يدعوا سلوك طريق أهل السنة الواضحة، ويمشوا في شرك أهل الشك والضلال، وأن كل من تظاهر بشيء من بدعهم قوبل بأشدّ عذاب وأتمّ نكال، وليُخْمدْ نيران بدعهم المُدلَهِمَّة وليُبادرْ إلى حسم فسادهم بكلّ همَّة، وتصريفهم عن التهوك في مهالك أهوائهم إلى مانصّ عليه الشرع واعتبره، وتطهير بواطنهم من رذالة اعتقادهم الباطل إلى أن يُعلنوا جميعهم بالترضي عن العَشَرة، وليحفَظْ أنسابهم بالعقود الصحيحة، وليُداوموُا على اعتقاد الحق والعمل بالسنة الصريحة. في خامس عشرين جمادى الآخرة سنة أربع وستين وسبعمائة[1] وهي:

«...وقد بلغنا أن جماعة من أهل بيروت وضواحيها، وصيدا ونواحيها، وأعمالها المضافة إليها، وجهاتها المحسوبة عليها، ومزارع كل من الجهتين وضياعها، وأصقاعها وبقاعها، وقد انتحلوا هذا المذهب الباطل وأظهروه، وعملوا به وقرروه وبثوه في العامة ونشروه، واتخذوه ديناً يعتقدونه وشرعاً يعتمدونه، وسلكوا منهاجه، وخاضوا لجاجه، وأصلّوه وفرّعوه، وتديّنوا به وشرعوه، وحصلّوه وفصلّوه، وبلّغوه إلى نفوس أتباعهم ووصلّوه، وعظّموا أحكامه، وقدّموا حكّامه، وتمّموا تبجيله وإعظامه، فهم بباطله عاملون، وبمقتضاه يتعاملون، ولأعلام علمه حاملون، وللفساد قابلون، وبغير السداد قائلون، وبحرم حرامه عائذون، وبحمى حمايته لائذون، وبكعبة ضلاله طائفُون، وبسُدّة شدته عاكفون، وإنهم يسبُّون خير الخلق بعد الأنبياء والمرسلين، ويستحلون دم أهل السنة من المسلمين، ويستبيحون نكاح المتعة ويرتكبونَه، ويأكلون مال مخالفيهم وينتهبونه، ويجمعون بين الأختين في النكاح، ويتدينون بالكفر الصراح، إلى غير ذلك من فروع هذا الأصل الخبيث، والمذهب الذي ساوى في البُطلان مذهب التثليث. فأنكرنا ذلك غاية الإنكار، وأكبرنا وقوعه أشد إكبار، وغضبنا لله تعالى أن يكون في هذه الدولة للكفر إذاعة، وللعصية إشادة وإشاعة، وللطاعة إخافةٌ وإضاعة، وللإيمان أزْجى بضاعة وأردنا أن نجهِّز طائفة من عسكر الإسلام، وفرقة من جُند الإمام، تستأصل شأفَةَ هذه العُصبة المُلحدة، وتطهر الأرض من رجس هذه المفسدة، ثم رأينا أن نقدّم الإنذار، ونسبق إليهم بالإعذار، فكتبنا هذا الكتاب، ووجهنا هذا الخطاب، ليقرأ على كافتهم ويبلغ إلى خاصتهم وعامتهم، يعلمهم أن هذه الأمور التي فعلوها والمذاهب التي انتحلوها تبيح دماءهم وأموالهم، وتقتضي تعميمهم بالعذاب واستئصالهم، فإنّ من استحل ما حرم الله تعالى وعرف كونه من الدين ضرورة فقد كفر، وقد قال الله تعالى: ﴿وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ الأُخْتَيْنِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ عطفاً على ما حكم بتحريمه، وأطلق النص فتعين حمله على تعميمه، وقد انعقد على ذلك الإجماع، وانقطعت عن مخالفته الأطماع، ومخالفة الإجماع حرام بقول من لم يزل سميعاً بصيراً: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً﴾. ونكاح المتعة منسوخ وعقده في نفس الأمر مفسوخ، ومن ارتكبه بعد علمه بتحريمه واشتهاره، فقد خرج عن الدين برده الحق وإنكاره، وفاعله إن لم يتب فهو مقتول، وعُذره فيما يأتيه من ذلك غير مقبول،

(١) الصواب: «أربع وثمانين وسبعمائة». راجع الهجرة العاملية إلى إيران، ص٧٤-٧٥.

وسبُّ الصحابة (رضوان الله عليهم) مخالف لما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم من تعظيم، ومنابذٌ لتصريحه باحترامهم وتبجيلهم، ومخالفته عليه السلام فيما شرعه من الأحكام، موجبة للكفر عند كل قائل وإمام، ومرتكب ذلك على العقوبة سائر، وإلى الجحيم صائر. ومن قَذَفَ عائشة أم المؤمنين (رضي الله عنها) بعدما برها الله تعالى فقد خالف كتابه العظيم، واستحق من الله النكال البليغ والعذاب الأليم، وعلى ذلك قامت واضحات الدلائل، وبه أخذ الأواخر والأوائل، وهو المنهج القويم، والصراط المستقيم، وما عدا ذلك فهو مردود ومن الملَّة غير معدود، وحادثٌ في الدين، وباعث من المُلحدين، وقد قال الصادق في كل مقالة، والموضح في كل دلالة: «كُلُّ مُحدثة بِدعةٌ وكلُّ بدعةٍ ضلالة»، فتوبوا إلى الله جميعاً، وعودوا إلى الجماعة سريعاً، وفارقوا مذهب أهل الضلالة، وجانبوا عصبة الجهالة، واسمعوا مقالة الناصح لكم في دينكم وعوا، وعن الغيِّ ارجعوا، وإلى الرشاد راجعوا، وإلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض باتباع السنة بادروا وسارعوا، ومن كان عنده امرأة بنكاح متعة فلايقربها، وليحذر من غشيانها وليتجنَّبها، ون نكح أختين في عقدين فليفارق الثانية منهما، فإن عقدها هو الباطل، وإن كانتا في عقد واحد فليخرجهما معاً عن حبالته ولا يماطل، فإن عذاب الله شديد، ونكال المجرم في الحميم كلَّ يوم يزيد، ودار غضب الله تنادي بأعدائه: هل من مزيد، فلا طاقة لكم بعذابه ولا قدرة على أليم عقابه، ولا مَفَرَّ للظالم منه ولا خلاص، ولا ملجأ ولا مناص، فرحم الله تعالى امرأ نظر لنفسه، واستعدَّ لرَمْسه، ومهَّد لمَضْرعه، ووطَّأ لمَضجَعه، قبل فوات الفوت، وهجوم الموت، وانقطاع الصوت، واعتقال اللسان، وانتقال الإنسان، قبل أن تُبذل التوبةُ ولا تقبل، وتُذرى الدموع وتُسْبل، وتنقضي الآجالُ، وينقطع الأمل ويمتنع العمل، وتزهق من العبد نفسه، ويضمه رَمْسُه، ويرد على ربه وهو عليه غَضْبانُ، وإن سخطه عليه بمخالفة أمره قد بان، ولا ينفعه حينئذ الندم، ولا تقال عثرته إذا زلت به القدم، وقد أعذر من أنذر، وأنصف من حذَّر، فإن حزب الله هم الغالبون، والذين كفروا سيُغلبُون ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ «ألهمنا الله وإياكم رشدنا، ووفق إلى مراضيه قصدنا، وجمعنا وإياكم على الطاعة، وأعاننا جميعاً على السنة والجماعة بمنِّه وكرمه»[1].

كما تلاحظون فقد ساق التوقيع مختلف التهم للشيعة، ومهما تكن فهي ترشدنا وتقودنا إلى نشاطات الشيعة المتأثرة بفعاليات الشهيد الأول آنذاك[2].

خد نضيف إلى ذلك أن الحكام أعدموا في عصر الشهيد في مدينة دمشق بالتحديد ثلاثة من الشيعة في الأعوام ٧٤٤، ٧٥٥، ٧٦٦، حيث كانت سوق قتل الشيعة بتهمة كونهم «رافضة» دائرة، يقول كبير علماء السنة ابن كثير الدمشقي في حوادث شهر جمادى الأولى من سنة٧٤٤:

وفي صبيحة يوم الإثنين الحادي والعشرين منه قتل بسوق الخيل حسن ابن الشيخ السكاكيني على ما ظهر منه من الرفض الدال على الكفر المحض، شهد عليه عند القاضي شرف الدين المالكي

(١) صبح الأعشى، ج١٣، ص١٤-٢١.
(٢) الهجرة العاملية إلى إيران ص٥٩-٨١.

بشهادات كثيرة تدل على كفره، وأنه رافضي جلد، فمن ذلك تكفير الشيخين (رضي الله عنهما) وقذفه أمّي المؤمنين عائشة وحفصة (رضي الله عنهما)، وزعم أن جبريل غلط فأوحى إلى محمد وإنما مرسلاً إلى علي، وغير ذلك من الأقوال الباطلة القبيحة (قبحه الله) وقد فعل وكان والده الشيخ محمد السكاكيني يعرف مذهب الرافضة والشيعة جيداً، وكانت له أسئلة على مذهب أهل الخير، ونظم في ذلك قصيدة أجابه فيها شيخنا الإمامُ العلامة شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله. وذكر غيرُ واحدٍ من أصحاب الشيخ أن السكاكيني ما مات حتى رجع عن مذهبه، وصار إلى قول أهل السنة، فالله أعلم. وأخبرت أن ولده حسناً هذا القبيح كان قد أراد قتل أبيه لما أظهر السنة[١].

ويقول أيضاً في حوادث سنة٧٥٥:

نادرة من الغرائب

في ويوم الإثنين السادس عشر من جمادى الأولى اجتاز رجل من الروافض من أهل الحلة بجامع دمشق وهو يسُبُّ كل من ظلم آل محمدٍ، ويكرر ذلك لا يفتر ولم يُصلِّ مع الناس ولا صلى على الجنازة الحاضرة، على أن الناس في الصلاة، وهو يكرر ذلك ويرفع صوته به. فلما فرغنا من الصلاة نَبَّهْتُ عليه الناس فأخذوه وإذا قاضي القضاة الشافعي في تلك الجنازة حاضر مع الناس. فجئت إليه واستنطقته من الذي ظلم آل محمد؟ فقال «أبو بكر الصديق»، ثم قال جهرة والناس يسمعون: «لعن الله أبا بكر وعمر وعثمان ومعاوية ويزيد». فأعاد ذلك مرتين. فأمر به الحاكم إلى السجن، ثم استحضره المالكي وجَلَدَه بالسياط، وهو مع ذلك يصرخ بالسب واللعن والكلام الذي لا يصدر إلا عن شقيّ. واسم هذا اللعين علي بن أبي الفضل بن محمد بن حسين بن كثير (قبحه الله وأخزاه) ثم لما كان يوم الخميس سابع (كذا والصواب: تاسع) عشرة عُقد له مجلس بدار السعادة وحضر القضاة الأربعة وطلب إلى هنالك، فقدَّر الله أن حكم نائب المالكي بقتله، فأخذ سريعاً فضربت عنقه تحت القلعة، وحرقه العامة وطافوا برأسه البلد ونادوا عليه: «هذا جزاء من سب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم». وقد ناظرت هذا الجاهل بدار القاضي المالكي وإذا عنده شيء مما يقوله الرافضة الغلاة، وقد تلقى عن أصحاب ابن مطهر[٢] أشياء في الكفر والزندقة (قبحه الله وإياهم) [٣].

ويقول أيضاً في حوادث شهر جمادى الآخرة من سنة٧٦٦:

قتل الرافضي الخبيث

وفي يوم الخميس سابع عشره أول النهار وجد رجل بالجامع الأموي اسمه محمود إبراهيم الشيرازي، وهو يسب الشيخين ويصرخ بلعنتهما، فرفع إلى القاضي المالكي قاضي القضاة جمال

---

(١) البداية والنهاية، ج١٤و ص٢٤٤، انظر الدرر الكامنة ج٢ ص٣٤، الرقم١٥٥١، شهداء الفضيلة، ص٧٣-٧٤، أعيان الشيعة ج٤ ص٦٢٨، خاتمة مستدرك الوسائل ج٢٠، ص٢٦٦، ط الجديدة.

(٢) يعنى العلامة الحلي (طاب ثراه).

(٣) البداية والنهاية ج١٤، ص٢٨٧، انظر الدرر الكامنة، ج٣ ص٣٤-٣٥، الرقم ٩٣ وص٨٣-٨٤، الرقم ٢١٣، شهداء الفضيلة ص٩٧-٩٨.

الدين المسلاتي فاستتابه عن ذلك وأحضر الضراب فأول ضربة قال: «لا إله إلا الله، علي ولي الله». ولما ضرب الثانية لعن أبا بكر وعمر، فالتهمه العامة فأوسعوه ضرباً مُبرحاً بحيث كاد يهلك، فجعل القاضي يَستَكفُّهم عنه فلم يسطعْ ذلك، فجعل الرافضي يسب ويلعن الصحابة، وقال: «كانوا على الضلال». فعند ذلك حُمل إلى نائب السلطنة وشُهد عليه قوله بأنهم كانوا على الضلالة، فعند ذلك حكم عليه القاضي بإراقة دمه، فأخذ إلى ظاهر البلد فضربت عنقه وأحرقته العامة (قبحه الله). وكان ممن يقرأ بمدرسة أبي عمر، ثم ظهر عليه الرفض فسجنه الحنبلي أربعين يوماً، فلم ينفع ذلك، وما زال يُصرِّح في كل موطن بأمر فيه بالسب حتى كان يومه هذا أظهر مذهبه في الجامع. وكان سبب قتله (قبحه الله كما قبح من كان قبله) وقُتل بقتله في سنة خمس وخمسين[١].

قال البغدادي في ترجمة الشهيد:

محمد جمال الدين مكي... العاملي الجزّيني (الجزّين على وزن السكّين: موضوع «كذا، ظ: موضوع» في البحرين) هو من غلاة الشيعة مات مقتولاً بدمشق سنة٧٨٢ اثنتين وثمانين وسبعمائة[٢].

وفي كلامه هذا عدة أخطاء:

أ) استشهاد الشهيد في عام ٧٨٢ خطأ قطعاً، والصحيح هو عام٧٨٦.

ب) قوله: «الجزّين... موضوع في البحرين» أيضاً خطأ فاحش، بل هو موضع في لبنان.

ت) قوله: «هو من غلاة الشيعة» أيضاً باطل، وبطلانه واضح لمن له أدنى دراية.

قال الشيخ محمد رضا شمس الدين رحمه الله:

الذي أراه أن الشهيد سُجن مرتين: أولاً قبل أن يقتل بأربع أو خمس سنين، وفيه ألف اللمعة... وثانياً قبل أن يقتل بسنة، وهو الذي استشهد بعده[٣].

أقول: هذا الكلام لا يوجد من يؤيده في المصادر التاريخية، ولم يقل أحد أن الشهيد سُجن مرتين. والذي يبدو أن ما حدا بالشيخ شمس الدين إلى هذه المقالة هو قول الشيخ الحر العاملي: «وفي مدّة الحبس ألف اللمعة الدمشقية في سبعة أيام»[٤]، ولكننا أشرنا فيما تقدم إلى عدم صحة هذه المقولة، هذا أولاً: وثانياً فإن الشيخ الحر العاملي اعتبر تأليف الشهيد للمعة الدمشقية في نفس السجن الذي أدى إلى شهادته وكان في السنة الأخيرة من حياته، لأن الشيخ الحرّ قال:

وكانت وفاته سنة ٧٨٦... بعدما حُبسَ سنة كاملةً في قلعة الشام، وفي مدّة الحبس ألف اللمعة الدمشقية[٥]. وعلى هذا. ولو أذعنا للفرض المحال بأن الشهيد ألف اللمعة في السجن اعتماداً على قول العاملي (طاب مثواه). فإن هذا الأمر لا يقودنا إلى أن الشهيد سجن مرتين.

---

(١) البداية والنهاية ج١٤، ص٣٥٤، انظر الدرر الكامنة، ج٤ ص٣٢١، الرقم ٨٧٨، شهداء الفضيلة ص٨٠.

(٢) هدية العارفين ج٢ ص١٧١، وذكر في عدة مواضع أخرى أيضاً قتل الشهيد في سنة ٧٨٢.

(٣) حياة الإمام الشهيد الأول، ص٧٣.

(٤) أمل الأمل، ج١ ص١٨٣.

(٥) أمل الأمل ج١، ص١٨٢-١٨٣.

وكما تقدم. نقلاً عن تلميذ الشهيد الفاضل المقداد. فإنّ الشهيد قُتل بالسيف، ثمّ صُلِبَ ثم رُجم ثم أُحرقَ ببلدة دمشق، وعلى هذا فليس له قبرٌ يزار، وهو كما يقول الشاعر الفارسي:

بعد از وفات تربت ما در زمين مجوى — در سينه هاى مردم عارف مزار ماست[١]

ولكن قال الشيخ محمد رضا شمس الدين رحمه الله:

إنه لم يعرف وجود قبر للشهيد، لأنه أحرق جسدهُ وذُرّي في الهواء. وقيل: «إنه جُمع رفاته بعد الإحراق ودُفن بالشام». وقد أخبرني بعض أدباء النجف المعروفين أنه شاهد قبره وعليه اسمه في الشام. ولبعدنا عنها الآن لن يتيسَّرْ لنا البحث عن ذلك[٢].

ومهما يكن فقد مضى الشهيد بمآثر كبيرة وأعمال جليلة وأياد بيضاء على الفقه والشريعة، خلدته ودرجت اسمه في سجل الخالدين من المجاهدين والعاملين في سبيل الإسلام... (فرحمه الله يوم وُلِدَ، ورحمه الله يوم استشهد في سبيل الله، ورحمه يوم يُحشر)[٣].

مكاتبة علي بن مؤيد إلى الشهيد الأول:

بسم الله الرحمن الرحيم

سلامٌ كَنَشْرِ العَنْبَرِ المتَضوّعِ — يُخَلّفُ ريحَ المسْك في كُلِّ موضعِ
سلامٌ يُباهي البَدْرَ في كُلِّ منزلٍ — سلامٌ يُضاهي الشَمْسَ في كُلِّ مَطْلَعِ
على شمس دينِ الحقِّ دام ظلالُهُ — بجدٍّ سعيدٍ في نعيمٍ مُمَتَّعِ

أدام الله مجلس المولى الإمام، العالم العامل، الفاضل الكامل، السالك الناسك، رضي الأخلاق، وفي الأعراق، علامة العالم، مُرشد طوائف الأمم، قُدوة العلماء الراسخين، أسوة الفضلاء المحققين، مفتي الفرق، الفاروق بالحق، حاوي فنون الفضائل والمعالي، حائز قَصَبِ السبق في حلْبَةِ الأعاظم والأعالي، وارث علوم الأنبياء والمرسلين، محيي مراسم الأئمة الطاهرين، سر الله في الأرضين، مولانا شمس الملةّ والحقّ والدين، مدَّ الله أطنابَ ظلاله بمحمد وآله في دولة راسية الأوتاد ونعمة متصلة الأمداد إلى يوم التناد.

وبعد فالمحبُ المشتاقُ إلى كريم لقائه غاية الاشتياق وأن يتشرف بعد البعاد بقُرب التّلاق.

حُرِمَ الطرفُ من مُحيّاك لكنْ — حظيَ القلبُ من حُمياك ريّا

يُنهي إلى ذلك الجناب، لازال مرجعاً لأولى الألباب: أن شيعة خراسان (صانها الله تعالى عن الحدثان)، متعطشون إلى زلال وصاله، والاغتراف من بحار فضله وإفضاله. وأفاضل هذه الديار قد مزّقَتْ شملهم أيدي الأدوار، وفرقت جلَّهم بل كلهم صنوفُ صروفِ الليل والنهار. وقال أمير المؤمنين (عليه السلامُ ربّ العالمين): «ثلمة الدين موتُ العلماء». وإنا لا نجد فينا من يوثق بعلمه في فتياه، أو يهتدي الناس برشده وهداه، فيسألون الله تعالى شرف حضوره والاستضاءة بأشعةِ نوره، والاقتداء بعلومه الشريفة، والاهتداء برسومه المنيفة. واليقين بكرمه العميم وفضله

(١) يعني: لا تبحث عن قبر لنا بعد الممات، فإن مزارنا يكمن في صدور العارفين.

(٢) حياة الإمام الشهيد الأول ص٦.

(٣) الروضة البهية ج١، ص١٤٨، المقدمة.

الجسيم أن لا يخيِّبَ رجاءهم ولا يرد دعاءهم ويُسعفَ مسؤولهم، ويُنجح مأمولهم.

إذا كان الدعاءُ لمَحْضِ خيرٍ على يدي الكريم فلا يُرَدُّ

امتثالاً لما قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ﴾.

ولا شك أن أولى الأرحام بالصلة الرحم الإسلامية الروحانية، وأحرى القرابات بالرعاية القرابةُ الإيمانيةُ ثم الجسمانيةُ، فهما عُقدتان لا تحلهما الأدوار والأطوارُ، بل شُعبتانِ لا يهدمُهما إعصار الأعصار، ونحن نخاف غضب الله على هذه البلاد، لفقدان المرشد وعدم الإرشاد.

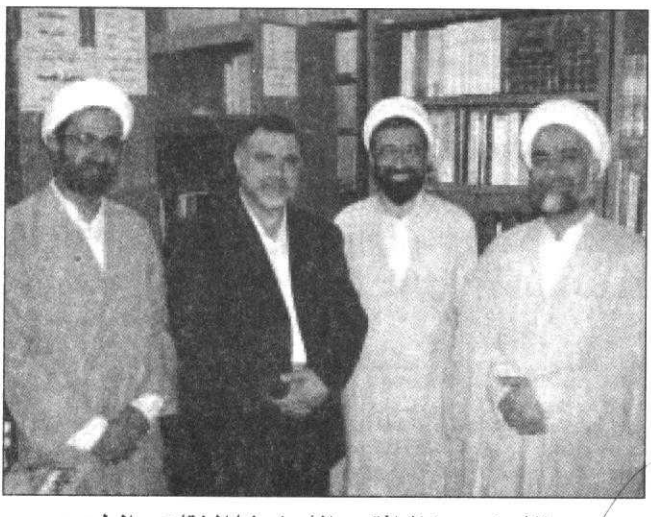

الشيخ حسين الواثقي - الشيخ رضا المختاري - الطريحي

والمسؤول من إنعامه العامِّ، وإكرامه التام أن يتفضَّلَ علينا، ويتوجَّه إلينا، متوكِّلاً على الله القدير، غير متعَلِّلٍ بنوعٍ من المعاذير، فإنا بحمد الله نعرفُ قدره ونستعظم أمره، إن شاء الله تعالى.

والمتوقع من مكارم صفاته ومحاسن ذاته إسبال ذيل العفو على هذا الهفو. والسلام على أهل الإسلام

فلما وصل هذا الكتاب إلى الشهيد أبى التوجه إلى إيران واعتذر إليه وصنَّفَ له اللمعة الدمشقية، وأعطاها شمس الدين الآوي فأتى بها إلى علي بن مؤيد.

قال العلامة السيد حسن الأمين رحمه الله:

وازن الشهيد بين واجبه في وطنه وواجبه في خراسان، فلم يتردد في عدم الاستجابة لدعوة علي بن المؤيد، لأن وطنه كان أشد الحاجة إليه، والأمر هنا يختلف عما كان عليه بعد ذلك في أيام الصفويين حين استدعوا العلماء العامليين فلبوا دعوتهم، لأن جبل عامل أيام الصفويين كان مملوءاً بالعلماء الذين كان يمكن أن يستغني عن بعضهم فيتركوه إلى إيران، في حين أن محمد بن مكي كان وحيداً في جبل عامل في أيام السربداريين، لذلك لم يستجب لدعوة علي بن مؤيد[١].

صارت اللمعة محطاً لأنظار الفقهاء، وأصبحت من أشهر المتون الفقهية، فكتبوا عليها الشروح الحواشي[٢]، ومن أهمها وأشهرها الروضة البهية في شرح اللمعة الدمشقية، وكان هذا الشرح أيضاً موضع اهتمام الفقهاء على مر العصور فكتبوا عليه الحواشي والشروح[٣].

(١) الشهيد الاول ص١٠٢.

(٢) انظر الذريعة ج٦، ص١٩٠ وج١٤، ص٤٧-٥١، مقدمه أي برفقه شيعة ص١٣٨-١٤١.

(٣) انظر الذريعة، ج٦ ص٩٠-٩٨، مقدمه أي برفقه شيعه ص١٨٤-١٩٤.